﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

موقفُ رُسلِ الله واحـدٌ من نـزول الهلاك بالأقوام

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة قدومَ الملائكة على إبراهيم ﷺ وحديثَه معهم بشأن إهلاك قوم لوطٍ ﷺ، ناسب ذكرُ مجيئهم إلى لوطٍ وبيان موقفِه من نزول العذاب بعد بيان موقفِ إبراهيم ﷺ؛ لبيان اشتراك رُسلِ الله برحمة العباد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيٓءَ﴾: (سوأ) السّوء: نعتٌ لكلّ شيءٍ رديء، يقال: ساء، ويسوء: على اللّزوم والتّعدّي، والسّوء: اسمٌ جامعٌ للآفات والدّاء[1]، وكلّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمور الدّنيويّة، والأخرويّة، ومن الأحوال النّفسيّة، والبدنيّة، والخارجة، من فواتِ مالٍ، وجاه، وفقْدِ حميم فهو السّوء[2]، والمراد بقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: غَشاهُ السّوء بسبب مجيء الرّسل إليه؛ خشيةً عليهم من تحرّش قومِه بهم، ولم يكن يعلم لوطٌ بعدُ أنّهم كانوا رسُلًا من الملائكة.

2) ﴿وَضَاقَ﴾: (ضيق) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ السَّعَةِ[3]، والضَّيْق والضّيق - بالفتح والكسر - ضدّ السّعة، وغلب استعمالُ الضَّيْقَة في الفقر والبخل والغمّ ونحو ذلك[4]، والمكان الضّيّق: ضدّ الواسع، وضاق الصّدر: انقبض وخلا من فُسحة السّرور، والأوّل

(1) الخليل، العين: (سوأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضيق).

ضيقٌ ماديّ، والثّاني ضيقٌ معنويّ، والمراد بقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ﴾، أي: انقبض صدره ووقع فيه التّشاؤمُ من قومه خوفًا على ضيوفه منهم.

3) ﴿ذَرْعًا﴾: (ذرع) أصلٌ يدلّ على امتدادٍ وتحرّكٍ إلى قُدّام، ثمّ ترجعُ الفروع إلى هذا الأصل، فالذّراع ذِراعُ الإنسان، معروفة، والذَّرْع: مصدر ذَرَعتُ الثّوبَ والحائطَ وغيرَه، إذا قِسْته بالذِّراع، ثم يقال: ضاق بهذا الأمرِ ذَرْعًا، إذا تكلّف أكثرَ مما يُطيق، فعَجَزَ[1]، فأصل الذّرْع: بسطُ اليدِ[2] مُمْتَدَّةً إلى قُدّام، ومعنى: ضاق ذرعًا بكذا، أي: لم يَجِدْ وُسْعًا لِمَدِّ يده وبَسْطِها إلى غرَضِه، ولذلك قيل: ضاقَ؛ لانتفاء الوسع، ثمّ استُعمِل في كلِّ ما لا طاقة للإنسان بتحصيله من الأغراض، المعنويّة والحسّيّة، وكُنّيَ به في الآية عن انقطاع الحيلة وثبوتِ الحَرَجِ لعدم قُدرةِ لوطٍ ﷺ على مُدافَعَةِ قومه فيما يتوقّعُه منهم من سوء تصرُّفِهم مع أضيافه، ولذلك قال مُعبّرًا عن هذا العجز ومُسْتَنْصِرًا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: 80].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا أن رآى لوطٌ ﷺ الرّسلَ ضاق بهم قلبُه؛ لأنّه لم يعلم أنّهم ملائكةٌ، فخاف عليهم من فساد قومِه وتفحّشِهم؛ لا سيّما وقد جاؤوه بصورةٍ حسنة وهيئةٍ من الوسامة، فكان ضيقُ قلبه لأجْلِ الله سبحانه، فأخبروه بأنّهم ملائكة، وأنَّ قومه لن يَصِلوا إليهم، فلا يخافُ على أضيافه، ولا يحزنُ على نفسه، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه، وزال ضيقُ صدرِه[3]، ثمّ أفصحوا له عن مهمّتهم، وقالوا: إنّا منجوك وأهلَك المؤمنين من العذاب الذي نُنزلُه بقومك، إلّا امرأتَه

المَساءةُ في قلوبِ المؤمنين سببُها خوفٌ على شرعٍ أو حـزنٌ على مكروه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرع).
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 96.

فسيُدركها العذابُ مع قومك، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئِها معهم[1]، ورضاها بأفعالهم القبيحة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو وبلاغةُ استعمالها دون الفاء:

تحتمل الواوُ في جملة: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ أن تكون للاستئناف النَّحويّ؛ على اعتبار أنّ الجملة شروعٌ في مضمونٍ جديدٍ وهو خطابُ الملائكة للوطٍ ﷺ، أو أن تكون للعطفِ إمّا على جملة مجيء الرُّسل لإبراهيم ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، وهو من عطف القصّة على القصّة، أو أن تكون الواو عاطفةً مدخولَها على ما تقديرُه مفهومٌ من قصّة مجيئهم لإبراهيم ﷺ، أي: ثمّ فارق الرّسلُ إبراهيمَ، ومَضَوا إلى القرية التي فيها لوطٌ ﷺ، ثمّ عطف خبَر وصولهم إلى لوطٍ عليه، فقال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، ولم يعطف بالفاء، كأن يقول: (فلمّا أنْ جاءت)؛ لإفهام أنّ بين المكانين مسافةً مقطوعةً، أي: بين مكان إبراهيم، ومكانِ لوط، فلم يعطف بالفاء لعدم إيهامِ التّلاصق بين المحلَّيْن[2].

مُتابعةُ المُهمّات بلا توقّفٍ أو فُتورٍ من سِمات رُسلِ الله

فائدةُ تَكرارِ لفظ (لمّا):

تكرَّر لفظُ (لمّا) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، بعد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ لإقامة كلِّ مجيءٍ إقامةً مستقلّةً عن الآخر؛ فإنَّ وقت مجيئِهم إبراهيمَ ﷺ يختلف عن وقت مجيئهم لوطًا ﷺ، ومقصدُ كلِّ مجيءٍ يختلف عنِ الآخر؛ فلِلَحْظ هذه الاختلافات في الوقت والمقصد كان تَكرارُ (لمّا).

يُـكَـرّر الـنّـظـيرُ بتَكرار سببه

براعةُ استعمالِ حرف ﴿أَن﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ أفاد تحقيق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 52، وطنطاوي، الوسيط: 11/ 34.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 432.

الرّبط بين مضمون جملتي الشّرط والجزاء بعد (لمّا)، فهي لتحقيق الرّبط بين جملة مجيء الرّسل وترتُّب مساءة لوطٍ عليها، ومعنى تحقيقه في الآية؛ فهي أكدت وجود الفعلين مترتبًا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنَّهما وجدا في جزءٍ واحدٍ من الزّمان، كأنّه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث[1]، وذلك لِما يَعلَمه من عادةِ معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم من قلّة الاحتشام وعدم مراعاة الحرمات مع الضّيوف، فلم يكن لوط عالمًا بأنَّهم ملائكة؛ لأنّهم جاؤوا في صورة رجال، فأريد هنا التّنبيه على أنَّ ما حدث به من المساءة وضيق الذّرع كان قبل أن يعلم بأنَّهم ملائكة جاؤوا لإهلاك أهل القرية، وقبل أن يقولوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾[2].

سرعةُ المَساءة من توقّع صنيع الفاسدين فطنةُ الحكمة وحكمة الكرامة

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

خلا قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ من ذكر (أن)، بخلاف الآية اللّاحقة فقد جاءت فيها ﴿أَن﴾؛ وذلك لأنّه لم يتّصل المقولُ بأوّل المجيء، بل كان قبله فاصِلٌ بالسّلام والضّيافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: 69][3]، ولم تقع (أنْ) المؤكِّدةُ في آية سورة هود؛ لأنّ في تلك السّورة تفصيلًا لسبب مساءتِه وضيْق ذرعه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: 78] فكان التّعرّضُ لسبب المَساءة في سورة هود مُغنيًا عن تأكيد ترتُّبها على مجيئهم إليه، وعدمُ الإفصاح عن السّبب هنا في العنكبوت ناسَبَهُ تأكيدُ النِّسبة بين جملتَي الشّرط والجزاء بعد (لمّا) الحينيّة[4].

سرعةُ الانتباه من شرِّ المعصية ليست كسرعة التّنبيه على وقوعِ الإهلاك

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 453.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 432، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 244.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 429.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 245.

فائدةُ تَكرار لفظ الرُّسل:

ضيوفُ النّاسِ من جنس الإنسانِ، وضيوفُ الرُّسلِ ملائكةُ الرّحمن

آثر النَّظمُ الكريم تَكرارَ مجيء لفظ الرُّسلِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾؛ لأنَّ الرُّسُلَ جاؤوا برسالتَين، واحدةٌ لإبراهيم ﷺ بالبشرى، والثّانيةُ للوطٍ ﷺ بإنجائه وأهلِه وإهلاكِ قومه، فكان تَكرارُ لفظِ الرُّسل بمثابة التّنبيه على اختلاف مضمونِ الرّسالة والوظيفة التي كُلِّفوها.

نكتةُ استعمالِ مفردة المجيء:

جاء استعمالُ مفردةِ المجيء دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ تحقيقًا لحضورهم عنده، فإنّ المجيء إتيانٌ مُحقَّقٌ، يُنبِئ بالعزم والقصدِ والعمدِ في إنفاذه[1].

فائدةُ إضافةِ الرُّسل إلى ضمير العظمة:

تعظيمُ الملائكةِ تشريفٌ لمن أُرسلوا إليه

أُضيف لفظُ الرُّسل إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ تعظيمًا لشأن الرّسل من الملائكة، فعظمتُهم من عظمةِ من أضيفوا إلى ضمير جلاله وهو المولى سبحانه، وفي الإضافة إلى ضمير العظمة إشارةٌ بديعةٌ إلى تشريف لوطٍ ﷺ؛ لأنّ ذلك الوفدَ المُعظّم المُرسَل من الله العظيم جاء لأجله.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿سِيٓءَ﴾:

مِن استِكْثارات القرآن استعمالُ (السّوء) في مضمار الفاحشةِ

جاء استعمالُ لفظِ السّوء؛ للدّلالة على ما نزل بلوطٍ ﷺ من المَساءة، أي: يَستقبحُه ويستشعرُ منه المهانةَ والحرجَ، فالتّعبير بمادّة المساءة؛ للإشارة إلى الفُحشِ الذي كان يتوجّسُه من قومه مع أضيافِه[2]، ولاستعمال السّوء في مضمار الفاحشة مكانٌ في القرآن، فقد وصف الله قومَ لوطٍ بذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الأنبياء: 74]، وفسّر سوءهم بعملِهم الخبائثَ فقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوأ).

مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ [الأنبياء: 74]، وهي الفواحشُ التي تفضحُ صاحبَها وتُسيء إليه، ووصف العذابَ الحالَّ بهم بهذه المادّة فقال: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾ [النمل: 58]، فاجتمعت هذه المادّة في وصف انفعال لوطٍ بها خجلًا من قُبحِهم، وفي وصْفِهم ووصْفِ أعمالِهم، وفي وصف العذابِ النّازلِ عليهم، لتأكيد أنّ السّوء كان أظهرَ شيءٍ وأدلَّ شيءٍ عليهم فآذَوا به نبيَّهم حتّى استاء واغتمَّ، وأدمَنوا عليه - أي: السّوء - حتّى نُعِتوا به، واستحقّوه جزاءً عُذِّبوا به.

نكتةُ التّعبير بصيغةِ المبنيّ للمفعول:

توقعُ ظنِّ السّوء بسبب فعْلِ الفاسدين

جاء التّعبير بصيغة ﴿سِيٓءَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعلُه؛ اهتمامًا بتصوير استيلاء الاستياءِ على لوطٍ عليه السلام، حتّى يتفرّغ السّامعُ لملاحظة مشاعره عليه السلام ليقف على كيفيّة الغمّ ومقدارِ السّوء الذي انتابه، هذا والفاعلُ المبهَمُ في التّركيب إمّا أن يكون قومَه المنحرفين، أو توقُّعَ حصولِ الانحراف من قومه تجاه الرُّسل، وهذا الظّنّ هو بسبب قومه، فيُرَدّ معنى الفاعل إليهم على طريقة إسناد الفعل إلى سببه الظّاهر، وهذا مندرجٌ في المجاز العقليِّ، فمردُّ الظَّنِّ إلى القوم، فهم الفاعلُ على الحقيقة، والتّقديرُ: (ساء لوطًا عليه السلام قومُه الذين يصدر عنهم عملُ السّوء والفحش).

معنَى الباء ودلالتُها:

شتّانَ بين مَنْ يُساء بِكَ لِأجْلِك، ومَنْ يُساءُ بِكَ مِنْك!

الباء في قوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ سببيّةٌ[1]، أي: سيء لوطٌ عليه السلام بسبب حضور الأضياف، خوفًا من قومِه وخشيةً على الأضياف، فالضّمير للأضياف، والسّببيّة هنا موجَبَةُ المعنى، أي: سيء لصالحهم، وليس معناه أنّهم تسبّبوا في إلحاق المساءة به على معنى

(1) صافي، الجدول: 10/ 334.

أنّها صدرت منهم، بل هي صادرةٌ من قومه، فالمسيئون هم، وعليه: فمعنى ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: استاء لأجلهم، لا منهم.

بلاغةُ الكناية في ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾:

إذا نَفَدَتِ الحيَل لاحَ بوادِرُ الأمَل

قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ تركيبٌ جرى مجرى المَثَل السّائر في معنى العجز وعدمِ القدرة، وهو كنايةٌ عن فقْد الطّاقة في التّدبير ونفادِ الحيلة في إدارة الأمور، وأصله: ضاق ذراعُه عن أنْ يَطال به غرضَه، لِقِصَر يَدِه أو للحيلولة بينها وبين ما تتناوله.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة:

تشبيهُ حالِ العاجزِ بحالِ مَنْ قَصَّر عن بلوغِ مُبتغاه

في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ استعارةٌ تمثيليّة، حيث شبّه حالَ لوط ﷺ في عدم قدرته على تدبير شأن أضيافه وعدم ضمانه لهم في أن يعصمهم من اعتداء قومه عليهم؛ بحال من ضاق ذراعُه عن احتواء مُبتغاه، وضدّه: من رَحُبَ ذراعُه واتّسَع للإلمام بشؤونه وأغراضه[1].

دلالةُ تَكرار الجارّ والمجرور:

العناية بالمعاني تستدعي الكشفَ بالمباني

كرّر الجارَّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ﴾ بعد أن قال: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ ليدلّ على أنّ كلًّا من المَساءة والضّيق حصل لأجلهم على وجهٍ مخصوصٍ دون أن يكون أحدهما أشدَّ من الآخر، ولو قيل: (سيء بهم وضاق ذرعًا)؛ لتوهّم أنّه سيء بهم على وجه الخصوص، وضاق ذرعًا على وجه العموم، وهو قد سيء بهم وضاق بهم على وجه الخصوص في الأمرين.

بلاغةُ النّظم في التّمييز المحوَّلِ عن الفاعل:

البيانُ بعد الإجمال تشخيصٌ للمعاني وتصويرٌ للأحوال

جاء نظمُ قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ على ما جاء عليه دون أن يُقال: (ضاق ذرعه بمجيئهم)[2]، فانتقل الإسناد من الفاعل في

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.
(2) صافي، الجدول: 10/ 334.

المقدّر وهو (ذرعه) إلى الضمير المستتر العائد على لوطٍ ﷺ، وحوِّل الفاعل إلى تمييزٍ، أي: ضاق هو بهم ذرعًا، ونكتة التّمييز بالمحوّل عن الفاعل ﴿ذَرْعًا﴾ الدّلالةُ على الاتّساع والشّمول والمبالغة، ففعل ﴿وَضَاقَ﴾ كان مُسندًا إلى الذّرع، فلمّا أُسند إلى لوطٍ ﷺ شمل الضّيقُ شخصَه كلَّه على سبيل الإجمال، ثم جاء التّمييز ليُبيِّن أنَّ الضّيق كان لطاقته وذرعه وقوّته في منع وصول قومه من الأضياف، فهو من البيان والتّفصيل بعد الإجمال، وللبيان بعد الإجمال وقعٌ في النَّفس كبيرٌ، كالتّخصيص بعد العموم، بالإضافة إلى تصوير استحواذ الضّيق على ذرعه كلّه، فهو مملوءٌ ضيقًا وعجزًا، حتّى استغرق الضّيقُ الذَّرعَ كلّه[1].

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على التّمييز في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، فلم يقل: (وضاق ذرعًا بهم)؛ لمزيد الاعتناء بهم، وللإيذان بالحصر، وهو حصرٌ إضافيّ؛ لأنّ الضّيق باعتباره شعورًا وهيئةً نفسيّةً أوسعُ من أنْ تنضبط أسبابه بالحصر الحقيقيّ، وفيه بيانٌ لمروءة الأنبياء المُتعاظِمة وحرصِهم الشّديد على مراعاة الضّيف.

مـروءةُ الأنبياء تظهرُ في المواقفِ الـعـصـيـبـةِ والمـشـاهـدِ الرّهيبة

بلاغةُ العطفِ في تقدير المحذوف:

جملة: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ معطوفةٌ على مُقدّر، أي: (قالوا إنّا رسل ربّك وقالوا لا تخف ولا تحزن)، وسياقُ الآيات وما جاء في سورة هود يُعين على هذا التّقدير، فقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: 81] هو في معنى المقدَّر آنفًا؛ لأنّ عبارة ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: 81] تطمينٌ عمليٌّ مُعلِّلٌ لنهيهم له عن الخوف والحزن، كأنَّه قيل: (لا تخف ولا تحزن فهم لن يصلوا إليك)[2].

السّياقُ وتفسيرُ القرآن بالقرآن من موارد تقديرِ المحذوفات

(1) فاضل السّامرائي، معاني النحو: 2/ 318.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 433.

بلاغةُ الجمعِ بين النَّهي عن الخوف والحزن:

أبـلـغُ النَّـهـي ما اقترن بتّعليلات تستوعب الواقعَ والمتُوقّعَ

جاء الجمع بين النّهي عن الخوف والنّهي عن الحزن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ للجمْعِ بين المخاوف المظنونةِ والمَيْقونة، فالخوف يقع من المكروه المتوقّع، والحزن يقع من المكروه الواقع[1]، فأخبروه أنّه معصومٌ من الأخطار كلّها، وبلاغةُ النّهي كامنةٌ في كونه معلَّلًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: 81]؛ لأنَّ نهيهم له عن الخوف والحزن لا بدّ أنْ يترتّب عليه إجراءٌ في الواقع من قِبَلِهم بتأمينه وتحصينه، فكأنّهم بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ يقولون له: (أنت في مأمن وحصن فلا تبالِ الأخطار، ولا تَتْبَع مخاوفَك وظنونك ولأنّنا رسل ربّك فلا تخف ولا تحزن.

فائدةُ حذفِ متعلّقات الأفعال:

نـفـيُ عـمـوم المـخـاوف والأحزان مقيّدةٌ بسياق الكلام

حُذِف معمول فعلِ الخوف والحزن في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ فلم يقولوا: (لا تخف من فجورهم ولا تحزن من فحشهم)؛ لإرادة العموم، فيتناول كلَّ ما من شأنه أن يُخيفه أو يُحزِنَه، فكأنّهم قالوا له: لا تخف على نفسك ولا تخف علينا، ولا تحزن على عجزك وما آل إليه أمرُك معهم، وأمرُك معنا من الحرج الذي أصابك بسببنا، ولا تخف من قومك فهم هالكون ونحن وأنت في عصمة منهم، ولا تحزن عليهم لا سيّما امرأتك، ولا تحزن عليهم، فهم مُستحقّون لِما سيصيبهم[2].

نكتةُ تقديم النَّهي عن الخوف على النَّهي عن الحزن:

نـفـيُ خـوفِ الـقـادم يـدفـعُ حزن الماضي

قُدّم النّهيُ عن الخوف على النَّهي عن الحزن في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾؛ لأنّ الخوف متعلّق بالمستقبل، وهو أكثرُ ما تُرجَى الكفايةُ منه، وإذا كُفي الإنسانُ سوءَ توقّعاته، تغلّب على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

حزنه الحاضر والماضي، فتوقّع الخير يُشفي الإنسانَ من حزنه، وانتظار الغنيمة يَجُبُّ أهوال الظلم ويمحو ذكرياته، ولذا بدأ بالمتوقّع، وثنّى بالواقع[1].

علّةُ فصلِ الجملة عن السّابقة:

جملة: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ تعليليّةٌ لجملة النّهي، وهي كقولهم له في موضع هود: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81]، كأنّهم قالوا: لا تخف ولا تحزن؛ لأنّنا منقذوك ومنجّوك[2].

براعةُ الاختلاف في صيغة مفردةِ الإنجاء:

زمنُ الإنجاء والمخاطَب به ملحوظٌ في صيَغ الكلام

وردت مفردةُ الإنجاء في خطاب الملائكة لإبراهيم ﷺ بقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾، وفي خطابهم للوط ﷺ قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، والتركيبان مشتركان في التّوكيد، لتأكيد الأوّل بالقسم المقدّر واللّام الموطّئة والنّون الثّقيلة، وتأكيدِ الثّاني بقوله: ﴿إِنَّا﴾ والتّحقيق بصيغة اسم الفاعل، ويتباينان في مجيء الأوّل على الفعليّة والثّاني على الاسميّة، ونكتة ذلك أنَّ صيغة الفعل ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ جاءت للدّلالة على الاستقبال بما يلائم زمنَ الوعد، فلمّا جاؤوا لوطًا ﷺ وأخبروه بإنجائه كان ذلك مسبوقًا بوعد وكان إخبارا للمرّة الثّانية، فاقتضى أن يعبّروا بالاسميّة ﴿مُنَجُّوكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الوعد السّابق نافذٌ لا محالة، ومفروغ منه[3].

توجيهُ القراءات القرآنيّة:

توكيد المعاني تتعدَّد ألفاظُه وتتنوّعُ قراءاتُه

في قوله تعالى: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ قراءتان؛ فقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح النّون وتضعيف الجيم؛ للدّلالة على مبالغتهم في إنجائه، ففيه زيادة تطمينٍ له، وقرأ الباقون ﴿مُنجُوكَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.
(2) صافي، الجدول: 10/ 335.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 53.

بسكون النّون وتخفيف الجيم[1]، على الأصل بالدّلالة على الإنجاء، اعتمادًا على التّوكيد في صدر الكلام في قولهم: ﴿إِنَّا﴾ فهو إنجاء مؤكّد أيضًا، إلّا أنّ قراءة التّشديد يكتنفُها التّوكيد من جهتين: التّأكيدُ في الضمير المتصل: ﴿إِنَّا﴾، والتّأكيد المستفادُ من التّضعيف[2].

فائدةُ التّعبير بضمير جمع المتكلمين:

الإشعارُ بالإيناسِ من عوامل تهدئة النّفوس وتطمين القلوب

صُدِّر المقولُ بضمير جمع المتكلّمين المؤكّدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾؛ لإيناسه بذواتهم، فإنّ المرء إذا وجد من يَعِدُه بالنّجاة والتّطمين، ثمّ رآه حاضرًا معه بشخصه زاد يقينُه بموعودِه، وقوي أُنْسُه، فكأنّهم حين قالوا له: ﴿إِنَّا﴾ أي: سنباشر بأنفسنا إنجاءَك فأنت معنا وفي صحبتنا.

دلالةُ عطف الاسم على الضّمير:

إظهارُ علّة الإنجاءِ في أهليّة المؤمنين للوطِ عليه السلام

الكاف في قوله تعالى: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، مضاف إليه مجرور لفظًا منصوب محلًّا؛ لأنّه في معنى المفعول، وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بعامل مقدّر معطوف على العامل في الضّمير ﴿مُنَجُّوكَ﴾، أي: منجّوك ومنجّون أهلَك، وعِلّة العطف: الجمع بينه وبين أهله المؤمنين في الإنجاء[3]، ولم يقل: (إنا منجّوك وإياهم) لإظهار علّة الإنجاء وهي الأهليَّة، فهم أهلٌ له، وما داموا كذلك فهم أهلٌ للإنجاء.

عِلّةُ تَكرار الاستثناء:

اختلافُ جهات الخطابِ من دواعي تَكرار المعاني

تكرَّر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ لبيان اختلاف الخبرين؛ فالاستثناءُ في الموضع الأوّل خطابٌ لإبراهيم عليه السلام، والاستثناء في الموضع الثّاني خطابٌ للوط عليه السلام، فلِانفكاك الجهتين اقتضى تَكرار

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 259.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 433، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 360.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 194.

الخطاب معهما، لتستقل كلٌّ منهما بتوجيه الخطاب، ولذا كان الاستثناء في الموضع الأوّل بالإضافة إلى هاء الغيب، والاستثناء في الموضع الثّاني بالإضافة إلى كاف الخطاب.

فائدةُ إضافةِ المرأة إلى كاف المخاطب:

أُضيف لفظُ (امرأة) إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ لتعريفِ المرأة، وتعيين ذاتها، وأمّا استثناؤها من أهله، فهو استثناء الخاصّ من أفراد العامّ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»